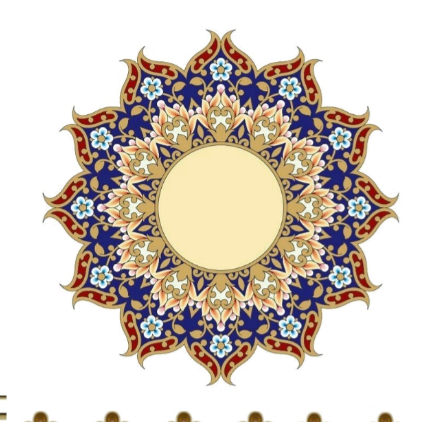
أصدق الاتجاهات الفكرية

في الشرق العربي



تأليف:

الدكتور مصطفى السباعي



جمعية الشبان المسلمين

اللجنة الثقافية

أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي

بقلم الاستاذ

مصطفى حسني السباعي

مطبعة الأمينة بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على مفخر الانسانية سيدنا محمد
وآله وصحبه .

بين يدي الرسالة

في عصرنا الحاضر، عصر النور والعلم والحضارة، يجد أبناء أمتنا الكريمة، ألواناً من الثقافات التي تعرض عليهم، يحيط كل لون من تلك الثقافات فن من الدعاوة والاغراء، ويجد شبابنا المثقف الواعي ان كل ثقافة معروضة انما تبشر بمذهب في الحياة واسلوب في الحكم والتشريع والاصلاح الاجتماعي.

ولقد كان يجب ان يكون في المقدمة، الاسلام بمفهومه الواسع، كحضارة ورسالة تنظم امر الدين بمعناه التعبدي المحدود وتحكم امر الدنيا بأساليب نظمها في تنسيق التشريع والآداب العامة والنظام العام؛ كان يجب ان يكون الاسلام بمفهومه الشامل لدواء الروح والمادة، يتقدم هذه التيارات الفكرية المتدفقة من الغرب على الشرق تدفق السيل الطامي. ولكن الاسلام من حيث صيغته الموضوعة حتى اليوم يكاد يكون غريباً عن اهله وابنائه قبل ان

يكون مفهوماً من اعدائه والجهال بكنهه وهذا ما يحدو بكل من فقه شطراً من دينه وفهم ركناً من اركان الاسلام في تشريعه وآدابه وعباداته إن يصب ما فهم في اساليب يسيغها ابناء هذا العصر وعليه ان يلبسه ثوباً محبباً الى عقلية القرن العشرين ليحقق الاسلام فينا معجزته التي اثبتها في سفر التاريخ فخلدت باسطر من نور مشرقة في سجل اجدادنا الغر الميامين الذين خدموا دينهم فأبرزوا للناس اجمل مظاهر مرونة الاسلام ويسره ، واحب احكام القرآن لقلوب الناس كافة ؛ ذلك لان الاسلام في جوهره ، رؤوف بمصالح البشر ضامن لسعادة الانسانية .

وان اول ما تشعر به اللجنة الثقافية في جمعية الشبان المسلمين ان عليها مهمة تصوير الاسلام لجميع الطبقات الاجتماعية بوجهه المشرق المرن الناظم لمصالح الفرد الساهر على راحة المجموع . فنشر مفهوم الاسلام بشكل يجعله محبباً الى قلب العامل والزارع والتاجر والمثقف هو اول ما تسعى له جمعية الشبان المسلمين من شباب محمد (ص) .

ولقد ضر بالاسلام أناس فهموا منه ما لم يأذن به الله

فضلوا واضلوا وحسبوا ان الاسلام دين قاصر على العبادة ثم نظروا للعبادة وحكموا عليها بظواهر احوالها وحركاتها ، وبسطحية أثرها فيمن لا يتعمقون بادائها وفهمها فظنوا واهمين ان هـذا الدين الذي صلح به اول هذه الامة لا يصلح به آخرها .

مع ان رسالة الاسلام انما احكمها الله لتكون نبراساً للناس كافة فهي مبادىء اجتماعية عالية لا يأخذ بها شعب الا سما وارتقى وقوي وازدهر دون تمييز في ذلك بين شعب وآخر فالنبي عليه الصلاة والسلام ما أرسل الا رحمة للعالمين الا أن الامة العربية هي أولى شعوب الارض بتقبل هذه الرسالة الاجتماعية المقدسة واحراها بتمثلها والسير تحت لوائها حتى تبلغ في مجدها الحاضر ما بلغه اجدادنا البواسل في عزهم الغابر .

ولعل اعمق ما يحز في النفس أن نجد بعض الاغرار والمخادعين من ابناء هذه الامة الابية يولون وجوههم شطر دول اجنبية يتخذون مبدأها لهم ديناً ، ورجالها لهم زعماء ، وقادتها مبعث فخار وتقديس ، مع انهم لو أخلصوا

لماضيهم وكانوا بررة بأمتهم وامجادهم لاتخذوا من تاريخ حضارتنا المشرق أقوى حافز لضمان مستقبل باهر يقوم على سواعد ابناء أمتنا وحدهم دون ارتكاس في احضان امة أجنبية ثانية .

ان في الاسلام لغنية عن كل مذهب آخر ، وإنه باعتباره روح القومية العربية ليتسع لكل طوائف هذا الوطن لاننا عندما نريد الاسلام نريده حضارة شاملة للتشريع والآداب العام والنظام العام فهو بهذا المفهوم لا يمنع احداً من أداء شعائر دينه كاملة ، كما كانت الحال أيام كان الاسلام في عزه وتسامحه يوم كان اصدق مثل أعلى في السمو والكمال .

فالجمعية لا تمت بصلة في دعوتها ونشر رسالتها الى عصبية او تعصب ولا تريد الا ان تبني الامة نهضتها معتمدة على رسالة الاسلام المستقلة عن أي ركون لنزعة او امة اجنبية مستعمرة .

ولعل اللجنة الثقافية في جمعية الشبان المسلمين اذ تتقدم بهذه الرسالة تقوم بجزء صغير من الواجب

الاصلاحي العام الذي يجب ان يقوم على اساس الاسلام ويستمد منه كل اصوله ومبادئه .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).



وجهتنا في الاصلاح

يجتاز الشرق العربي الحديث طوراً خطراً من اطوار حياته الاجتماعية والفكرية فقد تنبه بعد رقاد عميق وألفى نفسه في عالم زاخر بالحركة والحياة ، ورأى أن له من ماضيه وتراثه ما يبعث على الزهو والفخر والتقدم والنهوض ، واستعد للسير فاذا السبل أمامه مختلفة متغايرة ، واذا الدعاة متعددون متباينون كل يزعم أن طريقه أسلم عاقبة وأقوم محجة . فسار الشرق حائراً لا يدري أي الطرق أحق بالاتباع وما يزال حتى الآن متعثراً في خطواته يسير في فجاج لا عداد لها وسط صحراء قاحلة ليس بها منارات ولا صوى . على أن هذه الفوضى الفكرية ليست بعجيبة في مثل هذا الطور ، فالامم في بدء نهضتها لا بد من أن تختلف مشاربها وتتبلبل آراؤها حتى تثبت لها التجارب والبحوث أقوم المناهج وأنفعها وانما الامر المقلق أن تستمر هذه الفوضى أمداً طويلا دون ان تهتدي الامة الى النهج الذي يجب أن تسير عليه في حياتها المقبلة .

لنستعرض الآن اهم الاتجاهات الفكرية السائدة في المجتمع العربي وليكن ذلك بإيجاز ، فلسنا في مقام التأريخ لها والتحدث عنها بل في مقام التفضيل بينها واستنتاج اصدقها واسلمها عاقبة .

يرى فريق من الشباب ان تسير الامة في طريق الحرية الفكرية الى اقصى مداها فلا تتقيد بدين ولا تعبأ بتقاليد زاعمين ان الدين عائق عن الرقي والتقدم وأن التقاليد جميعها عثرة في سبيل الاصلاح ؛ ويستتبع ذلك رأيهم في النظم الاخلاقية أنها أمور اصطلاحية متعارفة ليس لها حقائق في ذاتها بل اضفى عليها العرف والبيئة والوراثة ثوباً سابغاً حتى صارت حقائق في نظر الناس وليست هي من ذلك بقليل ولا كثير .

ويرى فريق آخر أن يحصر الدين في المعابد والهياكل فحسب أما الدولة فلا تصبغ نفسها بأية صبغة من الدين ، ولا تتقيد بأي نظام من نظمه ، ويزيد بعضهم على ذلك : الدعوة الى قومية خاصة لكل قطر عربي ، فلسوريا قومية وللعراق قومية ولمصر قومية وهكذا ...

ويدعو آخرون الى الثورة على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية ثورة جامحة فلا تبقي على دين ، لانه مخدر الشعوب ، ولا على ثروة في يد الافراد لانها مثار الظلم ، ولا على رابطة قومية او جنسية لانها تحول دون الرخاء العالمي بما تثيره تلك القوميات من فتن وحروب .

ويؤمن آخرون بوجوب احياء الشعور القومي في الامة وتنبيهها الى خصائصها وامجادها وذكريات ابطالها . ومن هؤلاء من يتنكر للدين فلا يرى ان يكون من ضمن العناصر التي تبنى عليها القومية العربية جمعاً للكلمة بين عناصر الامة الواحدة ومنهم من يعرف للاسلام قدره ولكن لا يذهب الى مدى بعيد في الاخذ منه .

نستطيع ان نلمح في هذه المذاهب المتعددة في غاياتها وفي وسائلها أمراً جامعاً بين اكثرها وهو النفرة من الدين وابعاده عن الحياة العامة وتجاهل القوى الكامنة في نفسية الامة المستمدة من عقائدها وتراثها وماضيها المشرق الجميل .

في وسط هذه المذاهب الفكرية يرتفع صوت قوي

من اعماق نفوس مؤمنة ، يدعو الى اتخاذ الاسلام أساساً لنهضتنا وحركتنا التجديدية ، والاستفادة من العناصر القوية التي يفيض بها مجتمعنا الحاضر والتثبت في كل ما نأخذ عن أمم الحضارة فلا نقتبس منها الا ما ثبت صلاحه واستقام أمره . هذا الصوت القوي الذي بدأ خافتاً ضئيلا وما زال يقوى وينتشر حتى اصبح بعيد المدى ، قوي الأثر ، هو صوت الشباب المسلم الحديث ، ممن تضمهم رابطة شباب محمد صلى الله عليه وسلم . ومما يدعو الى الاهتمام بهذه الحركة أن جل القائمين بها شباب نهلوا من معين الثقافتين الاسلامية والاوربية ودرسوا الحضارتين العربية والغربية ، ومن ثم كان حتما لزاماً أن تنال هذه الدعوة الجديدة حظاً كبيراً من التوسع والانتشار .

على اي الاسس ترتكز الدعوة الاسلامية الحديثة ؟

ترتكز هذه الدعوة الجديدة الى سندين قويين :

الاول — أن الاسلام احدث فيما مضى أكبر انقلاب عرفه التاريخ سواء في محيط العرب الذين نزل عليهم الاسلام ام في محيط غيرهم من الامم التي دانت به او خضعت لسلطانه. واذا كان للاسلام هذا الأثر في قلب اوضاع الجماعات المتفككة، المبعثرة القوى، الفاسدة في عقائدها وأخلاقها، فلم لا نستفيد منه اليوم في القضاء على عيوبنا الاجتماعية التي جعلتنا في مؤخرة الامم علماً و كرامة وثروة ؟

الثاني — ان الجماعات لا يمكن ان تعيش بغير دين كما قرره علماء الاجتماع وقد قال رينان في كتابه « تاريخ الاديان » من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ومن الممكن ان تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن من

المستحيل ان ينمحي التدين او يتلاشى ، وما دام الامر كذلك فليكن هذا الدين هو الاسلام ، لانه اساس حضارتنا ومجدنا ولان فيه من الخصائص ما يجعله عظيم الأثر في رفع مستوى الافراد والجماعات وصيانة كيان الامة من التحلل والسقوط والفساد .

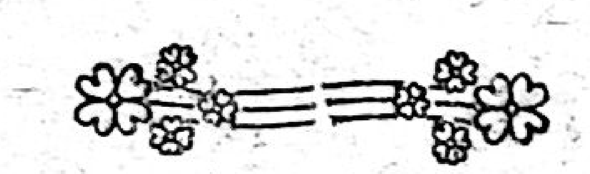
هاتان هما الدعامتان اللتان ترتكز عليهما الدعوة الاسلامية الحديثة . فلننظر في مدى قوتهما وثباتهما أمام البحث والتحليل .



الاسلام احدث اكبر ثورة عالمية

من الثابت تاريخياً أن العالم في بدء الدعوة الاسلامية كان مملوءاً بالفتن مستعراً بالحروب التي خضبت وجه الارض بدماء الابرياء ، وكان الملوك والرؤساء ورجال الاديان يتحكمون في عقول النـاس وابدانهم واموالهم ، وكانت الشرور الخلقية عامة طامة ، مما هوى بالانسانية الى درك سحيق جعل الحيوانية خيراً منها وأسلم عاقبة . أما العرب فقد كان فيهم مافي غيرهم من تفكك وجهالة ووثنية ، مع ما كانوا يتحلون به من صفات فردية ممتازة كالشهامة والشجاعة والكرم وصفاء الذهن وحدته وحب الحرية والاستماتة في سبيلها . في هذا العالم المضطرب انبعث صوت الاسلام من صحراء الجزيرة وكان صوتاً قوياً مجلجلا لم يلبث في عقدين من السنين أن أحال الجماعة العربية المتأخرة الى جمـاعة راقية تحيا حياة جديدة في تفكيرها وغاياتها ومثلها العليا ،

ثم لم ترض لنفسها ان تظل كما كانت من قبل منزوية عن العالم بل اندفعت من جزيرتها لتحقق هدف الاسلام في احداث ثورة عالمية جارفة تتغير معها خرائط وتتبدل بها عقائد وتزول بها دول وحضارات وتقوم على انقاضها مدنية لم يعرف التاريخ اسمى منها مباديء ولا اجزل منها خيراً . فالثورة التي أحدثها الاسلام في أمد وجيز جداً ثورة لا نظير لها في تاريخ الحركات العالمية الكبرى .



قدرة الاسلام على رفع مستوى الجماعات

من الثابت لكل من درس طبائع الامم وأحاط بأسباب نهوضها وانحطاطها أن كل امة ناهضة لابد لهـا لتكون نهضتها مثمرة ثابتة من دعائم اهمها :

١ ـ التحرر من الخرافات والشعوذات وفسح المجال للعقل .

٢ ـ التزود من العلم بأكبر نصيب .

٣ ـ الصحة في الاجسام .

٤ ـ الاخلاق القوية التي لاتبغي ولا تستكين ولا تحلق في أجواء الخيال ولا تسف الى الواقع الدنيء .

٥ ـ القوة العسكرية التى تحفظ الامن في الداخل وترد بغي الاعداء في الخارج .

٦ ـ تربية الضمير الاجتماعي في نفوس الافراد بحيث يحقق للدولة ما ترجوه من سن النظم وشرع القوانين .

٧ ـ التشريع الذي يحفظ حقوق الناس ويصون مصلحة

المجتمع ، وييسر للامة العيش الرغد والامن الشامل .

هذا ما تحتاج اليه كل أمة ناهضة تود الحياة في ظلال العزة والكرامة فالى اي مدى نستطيع أن نعتمد على الاسلام في تحقيق هذه الحاجات ؟

الحق ان الاسلام زاخر بالتعاليم التي تذهب الى أبعد غاية في تحقيقها ان عرف القادة كيف يفهمون روحه وكيف يبثون في الامة تعاليمه .

١ ـ الاسلام والعقل وموقفه من الخرافات

الاسلام يكبر من شأن العقل أيما اكبار ويعتمد عليه في اقناع الناس بصدق مبادئه فالبراهين التي تثبت للناس عقيدة الايمان بالله واحد ـ وهي اساس عقيدة الاسلام ـ براهين عقلية بحتة والطريق التي سلكها القرآن لاثبات ذلك هي طريقة الاستدلال العقلي والنظر الفطري . وكثيراً ما تنتهي آيات القرآن بمثل هذه المقاطع : أفلا تعقلون . أفلا تدبرون . لعلكم تذكرون ، ومن هنا اتفق علماء الاسلام أن الايمان المقبول ما كان عن علم وبرهان لا عن تقليد واذعان واختلفوا في ايمان المقلد أيصح منه أم لا ؟

ولقد نعى الله على اقوام يتبعون آباءهم في عقائدهم دون ان يستعملوا عقولهم ووبخهم أبلغ توبيخ « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟.. صم بكم عمي فهم لا يعقلون . أولئك كالانعام بل اضل سبيلا » .

وفي بعض الآثار : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . فما دام الاسلام يرفع من شأن العقل الى هذا الحد كان

طبيعياً ان يشن على الخرافات والاباطيل حرباً شعواء لا هوادة فيها ، فهو ينهى ان يتبع الرجل او يعتقد ما لم يقم عليه برهان قطعي ثابت « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا » والعلم المطلوب في هذه الآية هو الاعتقاد اليقيني الثابت المطابق للواقع عن دليل وبرهان . وهو يكافح الخرافات في شتى صورها . من عبادة الاوثان التي هي رأس الخرافات والاباطيل الى الكهانة والسحر والطيرة والاستقسام بالازلام وما اشبه ذلك مما كان ذائعا عند الامم القديمة ولا يزال قسم كبير منه حتى الآن عند الامم الحديثة ذات المدنية والحضارة ومن اروع ما يؤثر في هذا الباب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشمس كسفت يوم مات ولده ابراهيم فظن الناس انها انما كسفت من اجله فأنكر ذلك رسول الله اي انكار تحريرا للعقل من رق الخرافات والاوهام وقطعاً لدابر الشعوذة والتدجيل في اوساط العامة

ذلك هو موقف الاسلام من العقل ومحاربته للاوهام

والاباطيل فلا نستغرب بعد ذلك اذا رأينا الفكر العربي الذي كان يرضى في الجاهلية أن يعبد حجراً لا يضر ولا ينفع يتسامى بعد الاسلام فيتطلع الى معرفة دقائق التشريع وحكمة آدابه وفرائضه .

٢ — الاسلام والعلم

والاسلام الذي يكافح الخرافات ذلك الكفاح الجريء الصريح ، يعلم ان اول عامل في مكافحة الخرافات من عقول الامة ، إقبالها على العلم إقبالا شاملا لشتى نواحيه فلم يأل جهداً في الحث على العلم والترغيب فيه . وهو لا يخص ذلك بعلم دون علم بل كل علم تحتاج اليه الامة وجب أن يكون منها من يتعلمه بما يسد حاجتها اليه ، ولقد أحصى بعض العلماء الآيات التي تلفت أنظار الناس الى أسرار الكون وتحثهم على استجلاء غامضها فبلغت خمس آيات القرآن . وكثيراً ما شاد القرآن بفضل العلم والعلماء « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ونوه بسمو مكانتهم وعلو منزلتهم « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » وقصر تعقل الآيات والامثال عليهم « تلك الآيات نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » وليس هذا كل شيء بل في حديث رسول الله ما يجعل المداد الذي ينفقه العالم في تسويد الصحف وتاليف الكتب أرجح عند الله من دم الشهيد مع أن دم الشهيد هو في نظر الاسلام أزكى دم يراق على تربة

الوطن (يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء) .

كان لموقف الاسلام من العلم هذا الموقف الجميل ان اتجهت انظار العرب الفاتحين الى الاحاطة بكل ما عند الامم من ثقافات ومدنيات فلم يمض عليهم امد طويل حتى كانوا أرقى الامم ثقافة واوسطها علماً قال دريبر « ان العرب بعد وفاة النبي بست سنين شرعوا يطلبون العلم حين افتتحوا الاسكندرية فلم يدعوا فرعاً من فروعه إلا حذقوه وصاروا أئمته » .

وبلغ التخصص بعلمائنـا حداً يشبه تخصص علماء اليوم او يفوقه ، فهذا عالم من علماء اللغة ينفق من عمره ثلاثين سنة في جمع شتات اللهجات العربية وتتبعها من افواه القبائل العربية . وهذا إمام اللغة الاصمعي يخرج في رحلة علمية الى بعض القبائل العربية فينفق خمسة عشر دواة من الحبر ، في تسويد الصحف وجمع المعلومات . وهكذا نرى العناية البالغة في شتى فروع العلم ، بينما كانت الامم تنظر بعين الاجلال والاكبار الى من يحسنون فيها كتابة اسمائهم او قراءة بضعة سطور في رسالة عادية . وما كان اقل هؤلاء يومئذ بين جماهير الشعوب الغارقة في بحور الجهالة والامية !..

والاسلام الذى وقف من العلم هذا الموقف العجيب في تاريخ الدعوات ، قدر حاجة الامة الى الاجسام الصحيحة لتزود وتنتفع به . فحث على الطهارة والنظافة « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » واوجب الوضوء والاغتسال ورغب في السفر « سافروا تصحوا » وفرض الحج على كل مستطيع . وحث الآباء على تعليم ابنائهم كل فنون الرياضة المتعارفة حينذاك « علموا اولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » بل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القدوة الحسنة في ذلك فهو يسابق عائشة ويصارع ركانة ويغتسل ويتطيب وينهى عن اجهاد النفس في العبادة لئلا تنقطع عن أداء الواجب « ان المنبت لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى » ويقول لمن بلغه عنه المبالغة في العبادة « ألم أخبر يا فلان أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قال بلى يا رسول الله قال فلا تفعل ولكن قم ونم وصم وافطر فان لنفسك عليك حقاً وان لاهلك عليك حقاً » وما اروع قوله عليه الصلاة والسلام

« المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف » .

ولما دخل المسلمون مكة في عمرة الحديبية وبدأ الرسول بالطواف حول البيت كانت قريش تنظر اليهم من هضاب مكة فاضطبع رداءه وامرهم بالهرولة وقال « رحم الله امرءاً اراهم اليوم قوة في نفسه » .



ولا ريب ان قوة الاجسام وسعة المعارف قد يكونان في الامة اداة شر ان لم يزنهما خلق فاضل وتربية مستقيمة .
والاخلاق في الاسلام وسط بين الافراط والتفريط . وتقريب بين المثل الأعلى والواقع ، وانسجام بين العقل والغريزة ، قوة مع رحمة ، حكم مع عدل ، كرم مع اقتصاد ، تواضع مع عزة ، مساواة مع تسامح ، لين مع حزم ، تشاور مع عزم ، صفاء مع حذر . وهكذا كان النظام الاخلاقي في الاسلام هو النظام الوحيد الذى استطاعت الاجيال البشرية ان تتخلق به فتحتفظ بالسمو والحياة في آن واحد . من بين جميع النظم الاخلاقية التي وضعها الفلاسفة والمتشرعون .



٥ ـ الاسلام والجيش

العلم والصحة والخلق الفاضل ان لم تدعمها قوة مادية تتكافأ مع حاجة الامة واوضاعها السياسية والاجتماعية كانت عرضة للزوال في اى وقت يشاء خصوم الامة الاقوياء ان يبسطوا عليها سلطانها او يبثوا الفوضى والاضطراب في صفوفها . ولهذا شرع الاسلام اعداد القوة واوجب التهيؤ للنضال ، ولا اود الافاضة في موقف الاسلام العسكري . وحسبي ان اسرد لكم آيتين من كتاب الله تبينان الغاية من اعداد القوة وشرعها (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون ، وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم)

ولقد كان فريق من الجاهلين او المتعصبين يعيبون على الاسلام شريعة الاستعداد والجهاد حتى كانت اول الدروس التي القت علينا هذه الحرب واخذناها من كفاحنا ربع قرن في سبيل التحرر والاستقلال ان كل نهضة في الامة ان لم يكن من ورائها جيش وعلم ودولة هي كبناء قام على الرمل تكفي عاصفة هوجاء لتجعل عاليه سافله

٦ — الاسلام وتربية الضمير الاجتماعي

كل ما سبق من الدعائم لا تؤتى ثمارها ولا تحقق تمام الفائدة منها ان لم يكن في نفوس الامة ضمير اجتماعي يقيم الحواجز المنيعة بينها وبين استعمال تلك الدعامات فيما يقضي على أمن الوطن وسعادته وانتظام شؤونه .

فالعلماء ان لم توجب عليهم ضمائرهم الاخلاص في سبيل العلم والتفاني في تعليم الامة كان من ايسر الامور عليهم ان يستغلوا علمهم في السلب والنهب او الغش والتدليس !

والاصحاء ان لم تحتم عليهم ضمائرهم ان يستغلوا صحتهم فيما يفيد امتهم ادت بهم الى اللهو والعبث او البغي والاذى !

والخلق المستقيم ان لم يصحبه ضمير حي يرجح مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد انقلب الى انانية خبيثة خفية تحمل صاحبها على التفريط بحقوق المجتمع من حيث لا يظن الناس به الا كل خير واستقامة ،

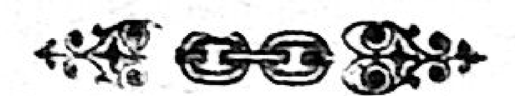
والقوة التنفيذية ان لم يحسن استعمالها وتوجيهها رجال

ذوو ضمائر يقظى حماتهم على الكبر والغرور ، واغرتهم بالتجاوز على سلطان الامة وحقوق الافراد !

لا بد للامة من ان يغرس فيها الوازع الاجتماعي الذى ينصف كل انسان من نفسه ويجعل له حاكما من ضميره . وليس ابعث على تثبيت هذا الوازع من مثل هذه التعاليم التي فاضت بها سور القرآن « ان الله يعلم السر واخفى . يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » .

اين تفر من اقامة الحق ؟ احتل على القانون بما تشاء فهنالك العين التي لا تغمض عن شيء ! وتظاهر بالخير مهما اردت فهنالك العلم الذى ينفذ الى خلجات نفسك ورغبات قلبك ، واسرف في استعمال كل قوة فهنالك اليوم الذي يؤتى فيه بالمجرمين اذلاء مكبلين بالحديد والقيود ، يوم تشهد عليهم ايديهم وارجلهم بما كانوا يكسبون .

لقد فشل الفلاسفة ان يثبتوا الوازع الاجتماعي في النفوس كما تثبته هذه التعاليم ، ولقد عجزت الآداب والفلسفة والاخلاق النظرية ان تخفف من عبء الحاكم بقلة المتخاصمين ولكن الاسلام استطاع ان يجعل عمر بن الخطاب يجلس للقضاء في عهد ابي بكر سنة فلا يختصم اليه اثنان !



واما التشريع الذي تتطلبه نهضة الامة ، فما يخالفنا كل من درس الاسلام دراسة هادئة منصفة انه تشريع متين الدعائم ، غزير المادة ، بعيد النظر ، متماسك الاجزاء يضع لكل داء دواء ، ولكل مشكلة حلا ، وهو مع هذا لا يضيق باصلاح ولا يتبرم بتطور طبيعي نافع . والمشاكل الكبرى التي تشغل بال العالم اليوم كمشكلة الثروة وتوزيعها والمرأة ووظيفتها والحكم وشكله ، والتربية واسسها ، هذه المشاكل وغيرها فصل الاسلام فيها برأي حاسم ، لو وجد من يطبقه في الامة لوفر عليها كثيراً من الجهود الضائعة واغناها عن عديد من التجارب القاسية وعصمها من سيئات الفوضى والبلبلة التي تعانيها اكثر الشعوب ممن لم تتعرض عقائدها لحل هذه المشكلات . وليس الآن مجال الافاضة في حلول مشكلاتنا الكبرى فذلك مما نعرض له في بحوثنا المقبلة ولكني اقتصر على ذكر بعض شهادات لكبار علماء الفكر ممن لا يظن ان فيهم عصبية للاسلام ، ولا مجاملة لاهله .

يقول سبنسر واضع علم الاجتماع :

ان شريعة الاسلام تحتوي على احكام عقاية عجيبة ، ولا يمكن ان يكون شيء في الوجود أحسن منها رجحانا في فضل الاحكام كلها .

ويقول البحاثة الامريكي (هوكنج) استاذ الفلسفة بجامعة هارفرد في كتابه روح السياسة العالمية :

« ان سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس في اتخاذ الاساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له ان يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السارية . وانما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم . وأحياناً يتساءل بعضهم عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد افكار جديدة واصدار احكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية ؟ فالجواب عن هذه المسألة هو : أن في نظام الاسلام كل استعداد داخلي للنمو لا بل انه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة . والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الاسلامي ، وانما في انعدام الميل الى استخدامها وانني اشعر بكوني على حق حين أقرر

ان الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء

اللازمة لنهضتها ».

ويقول الاستاذ شبرل الكاثوليكي المذهب وعميد كلية الحقوق بجامعة فينا في مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧

ان البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد اليها ، اذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً ان يأتي بتشريع سنكون نحن الاوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته

بعد ألفي عام ».

ويقول اشهر كتاب العصر الحاضر برناردشو في رسالة له بالانكليزية « نداء للعمل » :

« لقد كان دين محمد موضع تقديري السامي دائماً ، لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة ، لانه على ما يلوح لي ، هو الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذي يستطيع لذلك ان يجذب اليه كل جيل من الناس ... وأرى واجباً ان يدعى محمد منقذ الانسانية واعتقد ان رجلا مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث نجح فى حل مشكلاته واحل في العالم السلام والسعادة ، وما أشد حاجة العالم اليوم اليهما ! » .

ويقول ارموند بورك :

« ان القانون المحمدى قانون ضابط للجميع ، من الملك الى اقل رعاياه، وهو قانون نسج أحكم نظام حقوقي وأعظم قضاء علمي وأعظم تشريع منور لم يسبق قط للعالم ايجاد مثله » .

هذه شهادات استكثرنا منها في الاستشهاد على سعة التشريع الاسلامي ورقيه وانتظامه لشتى شؤون الحياة ، رجاء ان يسمعها اولئك الذين لا يشكون الا ان شكت اوروبا ولا يؤمنون الا اذا آمنت ، فعلهم يحسنون ظناً بالاسلام وهم ابناؤه الاقربون كما احسن به الظن اولئك العلماء المنصفون !

ايها السادة : اذا ثبت ان للاسلام هذه القوة على احداث الانقلابات ، في الماضي والحاضر ، واشادة صروح النهضات وحل اعقد المشكلات ، كانت الدعوة اليه الآن في امة كأمتنا ، المضطربة في نظمها وآدابها واوضاعها ، المتحفز للنهضة والعمل والتحرر ، أجل خدمة تقدم اليها واقرب طريق تحمل عليه .

وبذلك وثق شباب محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا ، والى ذلك دعوا وجاهدوا ، ولكنهم ما كادوا يمضون في طريقهم خطوات ، حتى ارتفعت اصوات من هنا وهناك ، تثبطهم عن المسير ، وتتهمهم بضلال السعي ، وجمود التفكير !

١ ـ قال قائلون : ان العقلية الحديثة لم تعد تستسيغ الدين ، ولم تعد تراه مؤتلفاً مع رقي الانسانية وتقدمها . فالدعوة الى الاسلام الآن دليل على تفكير ساذج قديم ، ورجوع بالامة الى حياة القرون الوسطى .

٢ ـ وقال آخرون : ان اوروبا قد غزتنا في عقر دورنا واستولت على مختلف ميادين النشاط في مجتمعنا ، فلا بد من ان نجاريها في مضمار الحضارة لننتزع منها السيطرة والنفوذ ، ولا بد ان نسلك السبل التي سلكتها للوصول الى هذه القمة الباذخة من السؤدد والسلطان . ومما لا ينكره احد أنها لم تبلغ ذلك الا يوم اطرحت رداء الدين ، وتخلصت من سلطة رجاله ، فعلامَ يراد بنا ان نكبّل بالقيود التي لم تقم المدنية الحديثة الا على تحطيمها ؟

٣ ـ وقال كثيرون : ان الدعوة الى الدين اليوم ، تثير في الناس نعرات وعصبيات ، تؤدي الى الخصام والنزاع ، بل ربما ادت الى الفتن والحروب ، فما اغنى الامة عن استعمال

هذا السلاح الخطر المزعج ، وما اولاها بالانعتاق من أثره وسلطانه ، لتسير في موكب المجد والنور يداً واحدة وصفاً واحداً ؟ ! .

هذا ما يعترض به المعترضون على دعوتنا التحررية الفتية فما مبلغ ذلك من الحق والصواب ؟ .

هل العقلية الحديثة لا تأتلف مع الدين ؟

من ضلال الرأي السائد في اوساط الشباب ان الدين وراثة تقليدية عن الآباء والجدود لا تحتمه الفطرة ولا توجبه واقعات الحياة . وبديهي ان نقول ان هذا صدى للموجة المادية التي اكتسحت اوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والتي جعلت للالحاد سوقاً رائجة ودعاة متضافرين ، ولكن العقل العلمي الفلسفي في القرن العشرين اخذ يتحرر من فلسفة المادة الضيقة ، وتأثير ادبائها وفلاسفتها عليه ، وقام يحمل معاول الهدم في بنائها الشامخ ، ليأتي عليه من قواعده وقد كاد يبلغ من ذلك أربا ، حتى ليذكر الكاتب الانكليزي مؤلف كتاب فلسفة المحدثين والمعاصرين : ان تقارب العلم والفلسفة والدين ظاهرة من ظواهر الحركة الفكرية في العصر الحاضر .

والعقل الحديث اليوم ، بعد ان تحرر من رق الفلسفة المادية ، يؤمن تمام الايمان ان الدين لازم من لوازم الحياة لا تستقيم نظمها ولا يصفو كدرها الا في ظلاله .

يقول هيلار بيلوك « ان اوربا ستعود الى الايمان او تلاشى »
ويقول أجوست سباتييه في كتابه فلسفة الدين « لماذا انا متدين ؟ » إني لم احرك شفتي بهذا السؤال مرة الا وأراني مسوقاً للاجابة عليه بهذا الجواب . وهو : انا متدين لاني لا استطيع غير ذلك فالتدين لازم معنوي من لوازم ذاتي . يقولون : ذلك أثر من آثار الوراثة اوالتربية او المزاج فاقول لهم : قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها ، وان ضرورة التدين اشاهدها اكثر قوة ، في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست اقل تشبثاً مني بأهداب الدين » الى ان قال « واذن فالتدين باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة »

فالعقل الحديث عقل مؤمن ، والنفسية الحديثة تميل الى التدين وتقبله ، ولكنها تشترط في الدين ليكون متفقاً مع وجهتها العلمية وحياتها الواقعية أن تتحقق فيه عدة شروط :

الشرائط التي تتطلبها العقلية الحديثة من الدين

١) ان يكون ملائماً للفطرة ، غير مصادم للعقل .

٢) ان لا يقوم حجر عثرة في سبيل امتداد سلطان الحضارة .

٣) ان لا يحظر على الناس استعمال ما تميل اليه نفوسهم من متع الحياة مما لا يضر بالفرد او المجتمع .

٤) ان لا يكون فيه من التكاليف الكثيرة ما يحول دون اعمال الحياة او يوقع في الضيق والحرج .

٥) ان يكون مراعياً مصلحة الجماعة عاملا من عوامل الاستقرار والطمأنينة فيما بينهم .

والاسلام بلا شك قد استوفى هذه الشروط على اتم وجه واكمله واليكم البيان :

١ — الإسلام والفطرة

الاسلام دين الفطرة الصافية التي لم تلوث بما يفسد نقاءها وصفاءها وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » .

ومن درس تفاصيل الشريعة واحاط بأسرارها تجلت له هذه الحقيقة سافرة بينة ، وهل بعد موقف الاسلام من العقل ومحاربته للخرافات والاضاليل ذلك الموقف الذي تحدثت به آنفاً ، هل بعد ذلك دليل على قرب الاسلام من طبيعة الانسان وفطرته ؟ ومن ابرز ما يدل على مسايرته الفطرة موقفه من متع الحياة ؟!..

والاسلام قبل ذلك كله دين يأخذ بيد الحضارة ويدفع الامم دفعاً الى ميادين التمدن . وان ديناً تبلغ دعوته الى العلم ذلك الحد الذي سمعتموه لا يمكن ان يحول دون حضارة او يعمل على عرقلة رقي ، وتاريخه شاهد عدل على ذلك . فقد اجمع المؤرخون ان الاسلام أقام اكبر حضارة عرفها التاريخ ، وان الحضارة العربية الزاهرة لم تنهض الا على سواعد الاسلام ودعائمه وان الحضارة التي اقامها كانت المعين الذي استقت منه الحضارة الغربية الحديثة .

قال غوستاف لوبون : « لقد كان للمدنية الاسلامية تأثير عظيم في العالم . وتم لها هذا التأثير بفضل العرب والعناصر المختلفة التي دانت بالاسلام . وبنفوذهم الادبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الامبراطورية الرومانية ، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوربا عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية وهذا ما كانت تجهله وعلى ذلك كان العرب ممدنينا واساتذتنا مدة ستمائة سنة . » .

الاسلام والتمتع بملذات الحياة

الاسلام لا يحظر على النـاس استعمال ما تميل اليه نفوسهم من متع الحياة الطيبة . ودستوره في ذلك قوله تعالى :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

واذا حرم من لذائذ الحياة شيئاً فذلك ليكبح جماح الشهوات ، ويفرض على الانسان حياة التوسط والاعتدال ودستوره في ذلك :

« كلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

وليس الاسراف مقصوراً على التبذير المادي ، بل هو شامل لـكل تفريط في تناول شيء مرغوب .

فالخمر اسراف في تحصيل لذة السرور تصل الى غيبوبة العقل .

والزنا إسراف في قضاء الشهوة يصل الى تعريض الجسم للامراض .

والقمار إسراف في جمع المال يبلغ حد الأثرة والشره

والطمع ؛ وقل مثل ذلك في كل ما حرمه الاسلام إنه إسراف وتفريط يضر بالفرد او المجتمع وما قامت شريعة إلا على رعايتهما والنظر في شؤونهما .



الاسلام والتيسير

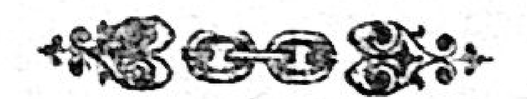
وليس في الاسلام ما يوقع في حرج او يؤخر عن واجب .

« ما جعل عليكم في الدين من حرج » .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

وما خير رسول الله بين امرين الا اختار ايسرهما . ولقد كره الاسلام التعمق في الدين والتشدد في العبادات ، والغلو في التعبد وقال في ذلك :

« ان هـذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا » .



الاسلام ورعاية مصلحة الجماعة

مصلحة الجماعة هي اساس التشريع الاسلامي الخالد ومن أنعم النظر في ابواب الفقه الاسلامي علم أن اكثرها لتحقيق المصلحة العامة كأبواب الزكاة ، والوقف ، وإحياء الموات ، والربا ، والحدود ، والجنايات .

وما تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة إلا رجح الاسلام الثانية على الاولى ، كما في هدم البيت المتداعي للسقوط ، والاخذ منه للطريق العام ، وأخذ الامام شيئاً من أموال الناس اذا اقتضت المصلحة ذلك .

هذا تحليل للاعتراض الاول وبيان لما فيه من مخالفة للحق وبعد عن الصواب .

هل نهضتنا لا تتم إلا باطراح الدين كما فعلت اوربا ؟

ان ذلك الزعم القائل بأن اوربا لم تنهض الا يوم تحررت من ربقة الدين ورجاله ، فلا ننهض الا اذا سلكنا سبيلها هو زعم ناشيء من الجهل بطبيعة الاسلام اولا ، وقلة الاحاطة بموقف رجال الدين من العلم ، والعلماء في فجر نهضة اوربا ثانياً .

طبيعة الاسلام كما سمعتموها الآن تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة غيره من الاديان التي عاقت خطى الحضارة ، ورجال الدين الذين كان شعارهم كما جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« أطفىء مصباح عقلك واعتقد وانت اعمى » .

والذين كانوا يحكمون على القائلين بكرويه الارض ودورانها بالكفر والاحراق .

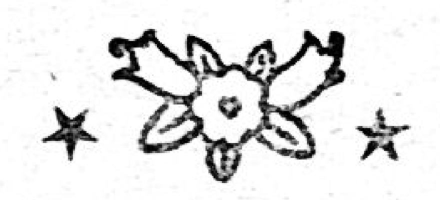
والذين كانوا ينفرون الناس من فلسفة ارسطو وتعاليم ابن رشد .

هؤلاء غير رجال الدين الذين كانوا يقررون للناس قوله تعالى :

« ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » .

وهم غير رجال الدين الذين كانوا يشرحون كروية الارض ويقررونها في مساجدهم ويثبتونها في تفسير قرآنهم كما فعل البيضاوي والفخر الرازى . وهم غير رجال الدين الذين تأدبوا بآداب القرآن « وبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ويعملون بوصية رسولهم : الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . خذ الحكمة ولا يضرك من اي وعاء خرجت » .

لئن كان اولئك اخرجوا سير النهضة في اوروبا وقاوموا العلوم والفلسفة والآداب ، فلقد كان هؤلاء حملة مشاعل الحضارة وحداة ركبها وأعلام قادتها .



هل الدعوة للاسلام دعوة الى عصبية وتفرقة ممقوتة

أما ان تكون دعوتنا للاسلام باعث عداوة وتفرقة طائفية ، فقد يكون ذلك معقولا ، لو أن طبيعة الاسلام طبيعة عدوان ، ولو ان تعاليمه تثبت الكره لمخالفيه ، وتحمل على عداوتهم ، ولكن الاسلام دين حب واخاء ، يفرض في الناس جميعاً اخوة الانسانية ، فلا تمايز لأحد على احد الا بالعمل الصالح ، والخدمة للمجتمع ، وهو يوجب الايمان بجميع الانبياء السابقين ، ويلزم حبهم وتقديسهم ؛ وقد وضع لمعاملة غير المسلمين مبدأ لا أعتقد ان في الدنيا اسمى منه غاية او اكرم عدالة ، او اوسع صدراً ، وذلك هو قوله تعالى :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

الدين الذى يضع مثل هذا المبدأ ، والدين الذي يقول : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

والدين الذي يقول: «الخلق كلهم عيال الله، واحبهم اليه انفعهم لعياله..» هذا الدين ليس من طبيعته البغي ولا التفرقة ولا نشر العداوة والبغضاء، فاذا رأيتم في المنتسبين اليه من بغى واعتدى فذلك اثر الانحراف عن تعاليمه، والابتعاد عن السرى في ضوء اقماره ونجومه.

يقول بعض الناس: هذا حق، ولكن غير المسلمين يوجسون شراً من الدعوة للاسلام، ويسوؤهم ان ينهض المسلمون على اساس من دينهم وهدى نبيهم!..

- ونحن نقول ما ذنبنا في خوف لا مبرر له، وفي القلق من دعوة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام؟..

ان دعوتنا محصورة في وسط امة مسلمة لا تعدوها الى سواها تبغي انهاضها على اساس عقيدتها القوية الصافية الخالية من البدع والضلالات؛ البعيدة عن روح الفوضى والخاصمات. وهذه العقيدة تشتمل على ثلاث نواح:

العبادات - والآداب - والمعاملات

وليس في اخذ المسلمين بواحدة منها اي خطر على من سواهم.

اما العبادات فأثرها ظاهر في تقويم الاخلاق ، وتهذيب النفوس ، وتقوية الاجسام ، واعداد الفرد لحياة اجتماعية راقية قوية ، فأي خطر ينشأ من ذلك على غير المسلمين ؟! .

وأما الآداب ،فهي من أقوى ما عرف التاريخ من نظم الاخلاق والسلوك .

آداب لا تصادم الغرائز ولا تسترسل مع الشهوات ، وهي مع ذلك تحارب الضعف والكسل والاباحية والتحلل ، وتنشر الثقة والعفة والامانة في اعمال الناس واقوالهم ونياتهم ، فأي ضرر يلحق بغير المسلمين اذا تخلق المسلمون بهذه الآداب ؟ على أن هذه الاداب هي آداب قومية عامة لا تختص بالمسلمين فحسب ، ولقد رأينا كيف كان أبناء هذه البلاد يتخلقون بأخلاق متشابهة ، ويعيشون في جوّ واحد متشابه في الزى والمأكل والمعيشة وغيرها ، حتى جاءت المدنية الحديثة ، فأسرع الى التعلق بقشورها فريق كبير من غير المسلمين ، أفليست الدعوة الى احياء تلك الآداب الصالحة دعوة قومية جامعة ؟..

وأما المعاملات فهي تشريع عالمي ينظم شؤون الحياة

المختلفة على مبادىء من أرقى المبادىء التشريعية العالمية .
تشريع يقرر عنه مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي سنة ١٩٣٦ أنه :

١ – تشريع حي صالح للتطور .

٢ – تشريع عالمي من مصادر التشريع العام .

٣ – مستقل بذاته ليس مأخوذاً ولا مستمداً من غيره .

اذا عملنا بهذا التشريع الخالد في شؤوننا العامة ، فانتفع به ابناء هذه الامة على اختلاف مللهم ، فهل فيه شيء من الضرر على غير المسلمين الذين لم يتعرض دينهم لشأن من شؤون التشريع حتى استعاروا من الاسلام بعض انظمته كنظام الارث ؟ .

واذا كانوا لا يرون من الغضاضة عليهم أن يأخذوا من الغرب تشريعه ونظمه ، فهل من الغضاضة عليهم أن يأخذوا بتشريع الاسلام ، وهو تشريع نما وترعرع في جو العروبة والشرق ؟ أوليس الاخذ به ، وهو تراث خالد من تراث الامة العربية ، ومظهر من مظاهر عبقرية علمائها ومجتهديها ، أخذاً بأقوى آصرة تجمع شتات العرب اليوم ، على هوى واحد ، وهدف واحد ؟ ..

ليس التعصب يا سادة ، أن ندعو الى مبدأ نعتقد فيه القوة والخير والكرامة لنا ، ولكن التعصب ان يُنكر علينا اعتناق هذا المبدأ ، والدعوة اليه ، والاستفادة منه ؛ وهو لا يسيء الى احد ولا يلحق بالمخالفين لنا ضرراً ؛ ولا ينتقص لهم حقاً ...

لا بل أنا اذهب الى ما هو ابعد من هذا ، واجهر بما هو اكثر صراحة : إن المسلمين من مجموع الامة العربية يبلغون ٩٧ ٪ .

فالدعوة التي تحقق انهاض هذه الجمهرة الكبرى ورفعتهم وكرامتهم تحقق انهاض البقية الباقية منهم .

ولقد حدثنا التاريخ ، أن نصارى هذه البلاد ، كانوا ارقى من نصارى اوربا علماً وثقافة ، واعز منهم مقاماً ومكانة يوم كان المسلمون في هذه البلاد اقوياء علماء اعزاء ، فلما انحط شأن المسلمين انحط شأن المسيحيين تبعاً لهم ، واصبحوا ادنى من مسيحيي الغرب في كل شأن من شؤونهم .

افليس اذاً من مصلحتهم ان يكونوا معنا اقوياء

اعزاء بدلاً من ان نظل نحن واياهم مستذلين ضعفاء ؟ وأليس من مصلحة هذه الامة ان تسير الدعوة الى الاسلام الصحيح سيراً طبيعياً لا يعترضه احد ولا تتبرم به طائفة ؟ .

بعض ما نعمل له الآن

ايها السادة : اذا كانت دعوتنا هي الاصلاح على اساس الاسلام ، فان في مقدمة ما نعمل له الآن :

اولا ـ تعميم التعليم واصلاح برامجه ليكون وافياً برغائب الامة ، منسجما مع حاجاتها .

ثانياً ـ اصلاح القوانين الحاضرة التي تزداد في ظلالها الجرائم ، وترتكس الاخلاق وتضيع حقوق الناس .

ثالثاً ـ القضاء على مظاهر الفساد والتحلل ، وبث الرجولة في نفوس الامة ، واتخاذ الطرق العملية لانهاض مستوى الاخلاق العامة .

رابعاً : القضاء على مظاهر الظلم الاجتماعي ، وايصال العمال والفلاحين والفقراء الى حقوقهم في حدود الاسلام العادل الرحيم .

خامساً : القضاء على مظاهر الضعف الجسمي والامراض المنتشرة ، بنشر الدعوة الصحية ، وتأسيس النوادي الرياضية ، والمستوصفات العامة ، وتأليف فرق الفتوة ، وما شابهها .

سادساً ـ رفع مستوى المرأة ، خلقياً ودينياً واجتماعياً لتكون صالحة للقيام بوظيفتها الطبيعية من تربية النشء وتنظيم الأسرة .

سابعاً ـ حياطة كيان الامة من كل فساد ، داخلي او خارجي ، ومحاربة الاستعمار في جميع صوره واشكاله . وان في مقدمة الفساد الخارجي ، ومن اخطر اشكال الاستعمار الفكري هذه الدعوات التي تمتد جذورها الى امم اجنبية ، وتستمد قوتها من معونة اجنبية ، والتي ترمي الى بث مبادىء لا تلتئم مع الاسلام ولا تتفق مع مصلحة الامة ، ولا تثمر الا نشر الفوضى ، وزعزعة العقيدة ، وإماتة الشعور القومي والوطني في نفوس ابناء الجيل الجديد .

هذه الدعوات لا ننفك عن محاربتها في حدود الحجة والمنطق والقانون ، وتحذير الامة مما تنطوي عليه من اخطار لا نهاية لها ، وفوضى لا غاية لشرورها وآثامها .

هذا ايها الاخوان بعض ما نعمل له ، وليس كل ما نريد عمله ، ولا كل ما يتضمنه برنامج حركتنا من خطط ومبادىء ترمي الى الاصلاح والنهوض .

وما احسب الا ان دعوتنا بعد هذا الايضاح والنقاش ، قد اتضحت سبلها ، وبانت مقاصدها ، وتميزت عن غيرها بأنها تستمد قوتها من قوى الامة الروحية والخلقية والفكرية ، فهي اذاً اصدق اتجاه فكري في الشرق العربي الحديث واقرب طريق للوصول بهذه الامة الى حياة كريمة تصل حاضرها بماضيها ، وتستخرج دفائن العظمة والبطولة والسمو والكمال من نفوس ابنائها وبناتها ، حتى ينظم التاريخ في امجادنا الحاضرة اناشيد الخلود يتغنى بها فم الزمان !

دعاء وإهابة

ايها الشباب ! لقد حدثتكم من قبل ، حديث العقل والمنطق ، وانا اريد الآن ان احدثكم حديث العاطفة والشعور .

ايها الشباب ! انكم ترون بأعينكم سيل الفساد قد عم كل ناحية من نواحي المجتمع . ولقد وثقتم ان اصلاحه لن يكون الا عن اقرب الطرق واجداها : عقيدة الامة وماضيها ؛ فاستفيدوا من عقيدتها ما تصلحون به اوضاعها واخلاقها ، واستفيدوا من ماضيها ما تحيون به هممها وعزائمها . ان عقيدتكم زاخرة بالقوة وان ماضيكم حافل بالمجد ، ومن اوتي المجد والقوة ، ثم فرط فيهما كان اشقى الهالكين .

يا شباب ! من للوطن غير سواعدكم تنهض به على تقوى من الله ورضوان ؟ ومن للامة غير صرخاتكم توقظها من رقدتها وتبث فيها روح اليقظة والعمل والحب والاحسان ؟ ومن للاخلاق الفاسدة غير عزائمكم

تدك معالمها ، وتدرس آثارها ، وترفع للفضيلة أعلاماً شامخة ، حتى تفيض جنبات الوطن بالعفاف والنبل والسمو والامان ؟

يا شباب ! ان محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، كلل آباءكم بأكاليل المجد ، وبوأهم جنات النعيم ، ودوّن اسماءهم في اسفار البطولة والقيادة والنبوغ ، فاتبعوا محمداً ، فانما تتبعون اعظم قواد الدنيا نجاحاً وحكمة واخلاصاً . واجهروا بالاسلام فانما تمثلون انبل مبادىء الدعوات عدلاً ونظاماً ورحمة وسلاماً .

ان يتهموكم بعد ذلك بالجمود فيا حبذا جمود يبوىء الخلود ، ويلحق عظمة الابناء بعظمة الجدود ! وان ينعتوكم بالرجعية ، فأنعم بها من رجعية تطفىء النار ، وتحمي الذمار ، وتدفع العار ، وترد كيد الاشرار ، ودعاة الاستعمار !..

يا شباب ! لقد وثقتم من الطريق فلا تترددوا ؛ وايقنتم بالغاية فلا تيأسوا ، واطمأننتم الى الكفاح فلا تنكصوا .

لا تعبأوا بلوم اللائمين ! فالذين آمنوا اذا مروا باللغو مروا كراماً .

ولا تبالوا باستهزاء المستهزئين ! « فالذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون » .

ولا تصدنكم عن العمل كثرة المتاعب! فما يصيبكم من نصب ولا تعب في سبيل الله الا كتب لكم به عمل صالح .

ولا تضنوا في سبيل الحق بأموالكم ولا انفسكم فان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة .

ولا تشكوا بنجاح دعوتكم فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » .

اعملوا يا شباب ليردد فيكم التاريخ قول شاعركم العربي :

وما كان من خير أتوه فانما

توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطي الا وشيجه

وتغرس الا في منابتها النخل ؟



وبعد : فهذا هو نص المحاضرة التي ألقيت في جمعية الشبان المسلمين بدمشق في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ ويسرنا ان نسجل هنا ان فكرتنا أخذت تتضح في اذهان الجمهور ، وتجد تأييداً من الاوساط الثقافية المخلصة ، ومن البيئات التي كانت تتوجس خيفة من انتشار الفكرة الاسلامية الحديثة ، حتى غدا خصومها بالامس من اشد أنصارها اليوم ؛ وذلك فضل من الله ومنة ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .

دمشق : رجب ١٣٦٤

